مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10/ العـدد: 3 (2022)، ص: 54-73

أزمة المناهج النقدية الحديثة في تحليل النصوص التراثية

The crisis of modern critical approaches in analyzing traditional texts

ط.د/ شريفي محمد لمين [1] أ.د/ بن شيخ أحلام[2]

[1]كلية اللغة والأدب العربي جامعة قاصدي مرباح ورقلة

Aminecharif29@gmail.com

[2]كلية اللغة والأدب العربي جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ahlembencheikh@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/07/18 تاريخ القبول: 2022/09/17 تاريخ النشر: 2022/10/08

الملخص:

مثلما عرف العرب الشعر والنثر وأبدعوا فيهما، عرفوا كذلك النقد الذي سار موازيا لهذا الإبداع يحلله وفق رؤى بلاغية ومفاهيم لغوية عربية تنسجم ونسيج النص، حتى العصر الحديث الذي ظهرت فيه مناهج نقدية غربية، منها ما يهتم بالسياق الخارجي المصاحب لنشأة الإبداع ومنها ما لايهمه إلا بناء النص نفسه، دون النظر في بيئته، وتبنى الكثير من النقاد العرب المحدثين هذه المناهج وحاولوا اخضاع النصوص العربية التراثية لأدوات هذه المناهج لدراستها وتحليلها، لكن هل تستطيع هذه المناهج الغربية دراسة النصوص التراثية؟ التي تتميز بطابع خاص مكون من معارف عديدة وثقافة ثرية وصياغة لغوية عربية خالصة فمنهج واحد منفرد أو حتى منهجين تعجز أساليبهما وأدواتهما الاجرائية عن استيعاب هذه النصوص، وظهر لنا هذا جليا عند القيام بالتطبيق على رسالة للجاحظ كأنموذج مع الوصف والتحليل، والنتيجة التي توصلنا لها أنه صارمن الضروري التفكير بجدية في استخدام المناهج المتكاملة والدراسات البينية للوصول لمغاليق هذه النصوص والاستفادة منها .

الكلمات المفتاحية : مناهج- نقد - نص تراثي - الجاحظ

Abstract:

Arab writers of poetry and prose were also familiar with the criticism that evaluated it. Contextual or textual criticism methods, which were embraced by many contemporary Arab critics, aimed to examine and critique Arab heritage works utilizing the instruments of these curricula up to the modern era, when western critical techniques emerged. These Western curriculum may they learn classical texts? They have a unique personality that is distinguished by a richness of knowledge, a vibrant culture, and the development of a wholly Arabic language. When we used these two techniques to a text by Al-Jahiz as a model with description and analysis, it became clear to us that even these two approaches' methodologies and procedural tools are unable to comprehend these writings. The result that we arrived at.

Keywords : heritage texts- Critical approach-Al-Jahiz -

***المؤلف المرسل: ط.د/ شريفي محمد لمين**

1. مقدمة

كان الأدباء العرب الأوائل ذوي ثقافة واسعة واطلاع كبير على علوم شتى استحقوا بها لقب العلماء فمثلما تكلموا العربية سليقة كتبوا كذلك بها ببراعة وبلاغة واضحة برزت من خلال ما أبدعوه من كتب في شتى المجالات والعلوم، والسمة البارزة في هذه الكتب هي الموسوعية في الطرح والاستدلال ثم الخروج الى الهوامش والجوانب والاستطراد في كل موضوع، ذلك أنهم كانوا يأخذون بتخصصات شتى فتجد الطبيب منهم أديبا شاعرا وفلكيا وفيلسوفا فإذا عمد أحدهم لفن من الفنون يكتب فيه جمع معه كل ما يتصل به من قريب أو بعيد

في بوتقة واحدة لتنصهر هذه العلوم وينتظم لؤلؤها بخيط العربية الذهبي فيكون الموضوع الرئيسي هو واسطة العقد وبقية العلوم العاضدة له جواهر جانبية ترصع هذا العقد، فالنص التراثي العربي نتاج عقلية عربية خالصة، نشأ في بيئة خاصة فقد كان النقاد الأوائل يحللون هذه النصوص –نثرية كانت او شعرية- وفق رؤى بلاغية ومفاهيم لغوية عربية أصيلة تنسجم ونسيج النص .

وبعد أن ورثنا هذه النصوص التراثية عن القدماء بدأنا نحاول سبر أغوارها مرة جديدة ومتجددة بالقراءة الواعية والتمحيص منذ العصر الحديث الذي اعتمد فيه النقاد على المناهج الغربية والتي أفترض أنها لن تكون قادرة -كل واحد منها على حدى -على القيام بعملية نقدية تامة للنص التراثي بل تحتاج لعدة مناهج أخرى .

لذلك نطرح الإشكالية التالية في جزأين ؟

هل يمكن للمناهج النقدية الغربية الحديثة أن تكون مناسبة لتحليل النص التراثي العربي ؟

وهل تمكن النقاد العرب المحدثون من استيعاب أصول المناهج الحديثة وتطبيقها؟

فرضيات البحث:

المناهج النقدية ضرورية لدراسة وتحليل النصوص التراثية.

لا يمكن الاعتماد على منهج واحد منفرد لفهم النصوص التراثية.

المناهج النقدية الغربية ليست كلها ملائمة للنصوص التراثية العربية .

الهدف من البحث: نهدف من خلال هذا البحث إلى

- تبيين ضرورة تكاتف المناهج المناهج النقدية لتحليل النصوص التراثية وضرورة العودة للمناهج في صورتها القديمة قبل تفككها وتشضيها على مر العصور .

- ايجاد منهج متكامل وموحد يستخدم كل الأليات والأدوات الإجرائية المتاحة لدراسة النصوص العربية القديمة .

الدراسات السابقة: البحث في مجال المناهج النقدية الحديثة الغربية التي اعتمدها أغلب النقاد العرب المحدثون ليست جديدة ولا قليلة ،فقد جذبت إليها كبار النقاد والباحثين العرب ، وحاولوا ايجاد طريقة لربطها بالتراث العربي واخضاع النصوص لأدواتها الاجرائية

وظهرت دراسات أكاديمية سابقة لبحثنا هذا مثل :

- النص التراثي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ، للباحث علي سحنين ، لكنه ركز على التجربة النقدية السيميائية تطبيقا على بعض النصوص لرشيد بن مالك.

- المناهج النقدية وسؤال النص التراثي ، دراسة للسياق المحيط بالنص لصاحبه قري عبد المجيد .

- المناهج النقدية واجراءاتها على النصوص الشعرية القديمة ، دراسة وصفية للسياق والنسق لصاحبها علي كريبع.

- المناهج النقدية واشكالية التطبيق والوعي بالأصول ل د. فاطمة سعدون

كما اسلفنا فهناك دراسات في السيميائية وأخرى في السياق والنسق أو الشعرية كل هذا مفيد، لكن نقول أن النص التراثي له خصوصيته في المبنى وفي المعنى يجي أن تحترم ،ولا نلوي عنق النص ليوافق هذه المناهج المستوردة .

لنقيس مدى ملائمة وقدرة المناهج الغربية على دراسة النص التراثي منفردة ستكون منهجية دراستنا تطبيقية ،حيث سنعتمد نصا تراثيا للجاحظ، ونقوم بداية بتعريف المناهج عموما ودورها في فهم النصوص، ثم نستعرض المناهج السياقية واحدا تلو الاخر، ونلاحظ كيف تساعدنا هذه المناهج بأدواتها الإجرائية على سبر أغوار النص جزئيا.

المنهج الذي اخترناه لدراستنا هذه هو المنهج الوصفي التحليلي ، الذي من أدواته الملاحظة وجمع البيانات، ثم اختيار عينة مقصودة وليست عشوائية، ثم تقديم تعاريف مبسطة للمناهج والقيام بإسقاطات تقريبية للمناهج على النصوص.

1- أهمية المناهج النقدية في تحليل النصوص :

إن القراءة الواعية للنصوص عامة تحتاج إلى منهج نسير عليه ونستخدم أدواته لفك شفرة أي نص، ذلك أن المنهج يوصف بأنه إطار علمي يساعد على كشف جماليات النصوص وفهم مكوناتها وأبعادها الدلالية فهو: طريقة في البحث توصلنا إلى نتائج مضمونة أو شبه مضمونة في أقصر وقت ممكن كما أنه وسيلة تحصن الباحث من أن يتيه في دروب ملتوية من التفكير النظري، ذلك أن المنهج هو المفتاح الإجرائي الذي يساعدنا على كشف بواطن النصوص وحقائقها لأنه ليس مجرد أداة منهجية فحسب وإنما يختزل رؤية خاصة للعالم تشارك في تفعيلها مجموعة من الخلفيات السوسيوثقافية وغيرها التي أدت إلى ظهوره وبالتالي فهو يساعدنا على رصد أبعاد النص الابداعية (خضر، صفحة 13) .. "

لكن الصعوبة التي اعترضت النقاد العرب المحدثين هي صعوبة ترتيب هذه الأدوات والخطوات الاجرائية عند تطبيقها وكذلك صعوبة تنسيقها بالشكل الذي يجعلها تؤدي النتيجة المنشودة، وبذلك تصبح عملية القراءة الواعية أو النقد أشد تعقيدا وتداخلا، فالعملية النقدية بطبعها متميزة عن الظواهر الإبداعية وعن الأنساق الثقافية والمعرفية الأخرى فقلما نجد منهجا نقديا يعتمد عليه كلية ومتفق عليه لفهم النصوص ونقدها، ولا بأس من تتبع بدايات النقاد العرب في هذا المضمار.

من أوائل الكتاب العرب المحدثين الذين كتبوا في تعريف النقد وحاولوا التأسيس لنقد عربي حديث الدكتور أحمد أمين "وقد صرح في كتابه النقد الأدبي

أنه اطلع على كتب النقد التراثية على غرار طبقات الشعراء لابن سلام وطبقات الشعر لابن قتيبة والصناعتين لأبي هلال العسكري ونقد الشعر ونقد النثر لقدامة والموازنة والوساطة وغيرها من الكتب القيمة وأنه عرف طريقة هذه المؤلفات ولكنه حين اطلع على كتب النقد الإنجليزية والغربية عموما وجدها تؤصل الأصول وتنظم النقد كعلم له قواعد وأصول ويرى أن هذه القواعد تنطبق على الأدب العربي " (أمين، 2012، صفحة 4)،

وقد حذا حذوه بعد ذلك أغلب النقاد العرب المحدثون المشارقة منهم والمغاربة واعتمدوا المناهج النقدية الغربية منذ نشأتها متتبعين مسار تطورها من النسقية إلى السياقية وكلما ظهر منهج جديد قالوا هذا هو المنهج وحاولوا في مرات عديدة لي أعناق النصوص التراثية لتخضع لهذه القواعد الغربية مع علمهم أن المناهج الغربية ما فتأت تتشضى وتتجزأ تبعا لأليات عقلانية أو إيديولوجية فالعلوم كلما تقدمت زمنيا تخصصت وصار لها منهج خاص بها .

ويمكن إجمال هذه المناهج النقدية في اتجاهين اثنين :

1-1الاتجاه الأول : "يعتبر النص الأدبي علة لمعلول سابق ينبغي الكشف عن دلالاته بربطه بسياقه الخارجي ويدخل في هذا المجال : المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي والمنهج النفسي والمنهج الانطباعي والاسطوري .

2-1 الاتجاه الثاني : يحاول أن يدرس النص الأدبي انطلاقا من العلاقات الداخلية التي تحكمه كالشكلانية والبنيوية والتفكيكية ثم السيميائية والأسلوبية والتداولية ..." (خضر، الصفحات 13-14)

وهذا الاتجاه الأخير ليس فيه تعارض كبير فهو يدرس العلاقات الداخلية المشكلة للمستويات المعجمية والصوتية والصرفية والدلالية وتناسق الكلمات والجمل لتشكيل النصوص فبالتالي هذا الاتجاه لا يهتم بالبيئة الخارجية ومؤثراتها عند صناعة الإبداع أو العمل الأدبي الفني ،وفي بحثنا هذا لن نلتفت

لهذه المناهج للوصول للفكرة المراد طرحها وايجاد حل لمشكلتنا ، مجال بحثنا هو ما تهتم بدراسته مناهج الاتجاه الأول النسقية فهي بطبيعة نشأتها وتبلور أساليبها واهتماماتها تبحث في مجالات مختلفة من البيئة المنشأة للعمل الأدبي والمجالات التي يهتم بها الأديب أو التي صقلت معارفه وأثرت في ثقافته .

2- النص التراثي في ظل النقد الاجتماعي والنقد الانطباعي :

للجاحظ رسالة عنوانها كتاب فخر السودان على البيضان كتبها نزولا عند رغبة صديق لم يذكره باسمه كعادته ، أراد من خلالها أن يجمع ويثبت بكل ما لديه من علوم وحجج مفاخر السودان والمقصود به من كانت بشرتهم سوداء، وقد استهلها بالحديث عن أشهر من عرف في التاريخ منهم قائلا : "أن لقمان الحكيم منهم، وهو الذي يقول: «ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عن الخوف، والأخ عند حاجتك». وقال لابنه : «إذا أردت أن تخالط رجلا فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك وإلا فاحذره ولم يرووا ذلك عنه إلا وله أشياء كثيرة. وأكثر من هذا مدح الله إياه وتسميته الحكيم، وما أوصي به ابنه».

ومنهم : سعيد بن جبير، قتله الحجاج قبل موته بستة أشهر وهو بن تسع وأربعين سنة، ومات الحجاج وهو ابن ثلاثة وخمسين سنة. وكان سعيد أورع الخلق وأتقاهم، وكان أعظم أصحاب ابن عباس. وأصحاب الحديث يطعنون في الذي يجئ من قبل أصحاب ابن عباس حتي يجئ من سعيد بن جبير . وأبوه مولي بني أسد، وهو مولى بني أمية، وقتل يوم قتل والناس يقولون : كلنا محتاج إليه . ومنهم : بلال الحبشي، الذي يقول فيه عمر بن الخطاب : «إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا، وهو ثلث الإسلام» .

ومنهم : مهجع، وهو أول قتيل قتل بين الصفين في سبيل الله. ومنهم: المقداد، وهو أول من عدا به فرسه في سبيل الله. ومنهم : وحشي قاتل مسيلمة

الكذاب. وكان يقول : قتلت خير الناس - يعني حمزة بن عبد المطلب وقتلت شر الناس - يعني مسيلمة الكذاب، ومنهم مكحول الفقيه ومنهم :الحيقطان الشاعر، الذي كان يفضل في رأيه وعقله وهمته، ومنهم جليبيب الذي تحدثت الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : خرج في غزاة فقال لأصحابه: هل تفقدون من أحد؟ قالوا : نفقد فلانا وفلانا . ثم خرج فقال هل. تفقدون من أحد؟ قالوا نفقد فلانا وفلانا ثم خرج، فقال هل تفقدون من أحد؟ قالوا في الثالثة : لا . قال : لكنى أفقد جليبيبا، اطلبوه. فطلبوه فوجدوه بين سبعة قد قتلهم ثم قتل. فقال النبي : قتل سبعة ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه». قال : ثم حمله على ساعديه حتي حفروا له، ما له سرير غير ساعدي رسول الله قال:«ولم يذكروا غسلا».

ومنهم : فرج الحجام، وكان من أهل العدالة، والمقدمين في الشهادة. أعتقه جعفر بن سليمان. قال : وبلغ من عدالته ونبله في نفسه وتوقيه وورعه، أن مواليه من ولد جعفر وكبار أهل المربد، كانوا لا يطمعون أن يشهدوه إلا على أمر صحيح لا اختلاف فيه ومنهم : عبد الله بن خازم السلمي، وبنو الحباب : عمير بن الحباب وإخوته.

أيضا منهم : الجحاف بن حكيم، وهم أيضا يفخرون برباح أخي بلال وحاله وصلاحه. ويفخرون بعامر بن فهيرة، بدري استشهد يوم بئر معونة، فرآه الناس قد رفعه الله بين الماء والأرض، فليس له في الأرض قبر. ومنهم آل ياسر قالوا: ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر. لم يكن في الأرض أشد منه: كان يقطع على القافلة وحده بما فيها من الحماة والخفراء.وكعبويه صاحب المغيرة بن الفزر، كان مثلا في الشجاعة.

ويقولون: ومنا مريح الأشرم، غلام أبي بحر القائد الذي كان قدم من الشام أيام قتيبة بن مسلم، وكان لا يرام لقاؤه، وأمره مشهور.....

وقال السودان: فهذا الفضل فينا، ولم يصل النبي صلى الله عليه وسلم قط إلا على جنازة أو قبر، إلا النجاشي فإنه صلى عليه وهو بالمدينة وقبر النجاشي بالحبشة. قالوا: والنجاشي هوكان زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان من النبي صلى الله عليه وسلم، ودعا خالد بن سعيد " فجعله وليها، وأصدق عن النبي صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار....." (هارون ع.، ط1 2018، الصفحات 116-125).

للجاحظ في هذه الرسالة كلام طويل يذكر فيه الكثير من الرجال ومن الأحداث إضافة إلى أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وروايات عن الصحابة ورجال أخرين، والبحث في هذا المجال يحتاج لعلم بالرجال على غرار ما كتب في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر وغيره من الكتب التي تضبط تاريخ الرجال . ومن الناحية الأدبية قد يكون المنهج الاجتماعي الأقرب من حيث خصائصه " فالمنهج الاجتماعي .. هو نقد مضموني أي يهتم بمضمون النص. ويعتبر الأدب ناقل ومروج للأفكار السياسية. ذلك أن النقد الاجتماعي نقد تفسيري يحاول الناقد من خلاله إبراز الدلالات الاجتماعية أو التاريخية الكامنة في العمل الأدبي. وهونقد تقويمي يعلي من شأن الأديب الملتزم بقضايا أمته وبالتصدي لتصويرها والدفاع عنها " (خضر، صفحة 41)

وهذا ما يحاول الجاحظ القيام به هنا ليبرز فضل الزنوج ومكانة رجالهم من المجتمع وأخلاقه السامية، ومن التدين والكرم والشجاعة .. والزنوج جزء لا يتجزأ من الأمة الاسلامية ومن الخلافة العباسية تحديدا التي عرفت قلاقل وثورات منها ثورة الزنوج .

أو يمكننا كقراء عاديين الانسياق وراء النص والاعتماد على النقد الانطباعي وهو" المنهج الذي يعتمد على الذوق الخاص القائم على التجربة الشخصية فيبتعد عن المنهج الموضوعي العلمي فهو نقد ذو طابع غير مقنع لأنه لا

يهتم بالنصوص بل كل اهتمامه بأثرها على نفسه فمقياسه الشعور والذوق " (ثوريني، 2004)

ومن النقاد والادباء من لا يعتبره منهجا نقديا لأنه أحكام أخرجها صاحبها تحت تأثير الانطباعات الأولية السريعة، أوالأهواء الشخصية المتحيزة، أوالمزاج الفردي الخاص، لم يخرجها نتيجة تأمل ودراسة مدققة تعتمد على معايير وضوابط متفق عليها. وهذا ما سنلاحظ ملائمته للكثير من النصوص المختارة إذ نجد كلاما كثيرا وافراطا من الكاتب في سرد الحكايات والأخبار ذلك أن الجاحظ بالإضافة إلى كونه أديبا أريبا فهو ناقد حصيف يميل أثناء كتابته للممارسة الكتابة باسهاب واطلاق الاحكام النقدية الانطباعية ويكون غالبا هذا النوع من النقد أحكاما عامة غير معللة إذ يكتب الأديب ويتبعه متأثرا وواصفا ولا يقدم شرحا ولا تفصيلا، ولا يبين الأسباب التي جعلته يطلق أحكامه، كما كانوا يقولون : هذ أشعر بيت وأهجى بيت أو فلان أشعر من فلان ... ويذكرون أسبابا سطحية غير مقنعة لا تكفي أن يحكم عليها بهذا الحكم، وغالبا ما يكون حكم الناقد على سجية معينة فيعممها على كل النص أو يجد خطأ فيعممه. النتيجة أن النقد الانطباعي يجد في مثل هذا النص مادة دسمة .

3- المنهج الأسطوري والنص التراثي:

وبالمواصلة في تتبع النص الاتي نجد الجاحظ يتصدى لقضية أخرى مهمة في مجتمعه بالحجة والبيان لكن في ظل دفاعه عن قضيته يغوص في مجالات أخرى يعجز المنهج الاجتماعي او الانطباعي عن احتوائها فنجد الجاحظ في النص المقبل يعطي أحكاما قطعية في علم الألسنية واللغات حيث يقول : "وليس في الأرض أحسن حلوقا منهم(يقصد الزنوج). وليس في الأرض لغة أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب ألسنة، ولا أقل تمطيطا منهم وليس في الأرض قوم إلا وأنت تصيب فيهم الأرت والفأفأة والعيي، ومن في لسانه

حبسة، وغيرهم والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكتة حتي يفرغ من كلامه..وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيهم .وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم. وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء .وهذه هي خصال الشرف ." (هارون ت.، ط1 2018، الصفحات 126-127).

وهذا الأمر يحتاج إلى علم أخر كما أسلفنا يكون مزيجا بين الانثربولوجيا واللسانيات وهذا من خصائص المنهج الأسطوري (الأنثروبولوجي) حيث يمكن "تتبع بدايات الجنس البشري وتاريخه المبكر ودراسة المورثات الثقافية والطبيعية بأنواعها. ....كما تنصب الأنثروبولوجيا على دراسة اللاشعور الجمعي والعقل الباطن وكيف تترسب كثير من العادات والمعارف البشرية المشتركة في ذهن الإنسان. وتدرس هذه النظرية الطقوس والعادات والديانات والشعائر والأساطير والثقافة والطبيعة والطابو والطوطم والسحر والشعوذة والفنون والآداب.... وقد استفادت النظرية من علوم عديدة كعلم النفس وعلم الاجتماع واللسانيات والبيولوجيا والفلسفة والتاريخ..ومن المعلوم أن الموروثات البشرية تتشكل في شكل رموز وعلامات اجتماعية وتعرض للأفراد كأنها أحلام، وللمجتمع في أشكال حوادث تاريخية تؤثر في أغلب أبنائه تأثيرا موحدا، لأنها هي نفسها تتخذ أشكالا محددة أو أنماطا ثابتة من أنماط السلوك» (خضر، صفحة 78)

فهذا ما نراه منهجا مناسبا لدراسة الكلام الوارد في النص السابق لأن الجاحظ عمم أمرا خطيرا كاللغة والقدرات اللسانية والقدرات الجسمانية والأخلاقية ولا يمكن بأي حال التغاضي عن الكلام وأخذه على علاته بل لابد من دراسته بعلم دقيق يثبت أوينفي هذه الأحكام .

4- النص التراثي والسيمياء والدلالة :

ولا يكتفي الجاحظ عند الحد السابق بل يزيد من حججه وبراهينه بالحديث عن قوة اللون الأسود وتأثيره على المخلوقات والجماد الذي صبغ به خلقة ونشأة حيث يواصل قائلا: "قالوا: ونحن أهول في الدور وأملا للعيون، كما أن المسودة أهول في العيون وأملا للصدور من المبيضة، وكما أن الليل أهول من النهار. قالوا: والسواد أبدا أهول. وإن العرب لتصف الإبل فتقول : الصهب سرع، والحمر غزر، والسود بهى. فهذا في الإبل. قالوا: ودهم الخيل أبهى وأقوى، والبقر السود أحسن وأبهى، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى. والحمر السود أثمن وأحسن وأقوى. وسود الشاء أدسم ألبانا وأكثر زبدا والدبس أغزر من الحمر وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة وأشد يبوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شيء . .وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود، ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر. والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع. وجاء: عليكم بالسواد الأعظم».

قالوا: وأحسن الخضرة ما ضارع السواد. قال الله جل وعلا: ومن دونهما جنتان [الرحمن : 62]، ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما: مدهامتان * [الرحمن64] قال ابن عباس: خضراوان من الري سوداوان.

وليس في الأرض عود أحسن خشبا ولا أغلى ثمنا، ولا أثقل وزنا ولا أسلم من القوادح)، ولا أجدر أن ينشب به الخط من الآبنوس). ولقد بلغ من اكتنازه والتئامه وملوسته وشدة تداخله، أنه يرسب في الماء دون جميع العيدان والخشب. ولقد غلب بذلك بعض الحجارة؛ إذ صار يرسب وذلك الحجر لا يرسب.والإنسان أحسن ما يكون في العين ما دام أسود الشعر. وكذلك شعورهم في الجنة. وأكرم ما في الإنسان حدقتاه؛ وهما سوداوان. وأكرم الأكحال الإثم وهو أسود. ولذلك جاء أن الله يدخل جميع المؤمنين الجنة جردا مردا مكحلين. وأنفع ما في الإنسان

له كبده التي بها تصلح معدته، وينهضم طعامه، وبصلاح ذلك قام بده؛ والكبد سوداء.

وأنفس ما في الإنسان وأعزه سويداء قلبه، وهي علقة سوداء تكون في جوف فؤاده، تقوم في القلب مقام الدماغ من الرأس . ومن أطيب ما في المرأة وأشهاه شفتاه للتقبيل، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتا السواد.... (هارون ع.، ط1 2018، الصفحات 131-133).

الحديث عن دلالة اللون الأسود وتمييزه لكثير من الأشياء ومنحها صفة القوة والهيبة ثم الجودة والجمال وصفات اخرى قصد إليها المؤلف في كلام طويل واسترسال جميل ولا يمكن أن نصل إلى حقيقتها إلا باستخدام أدوات إجرائية مستلة من منهج سيميائي دلالي يقدم لنا أدلة علمية تثبت أوتنفي ما ذهب إليه المؤلف، ومعلومات دقيقة مثل هذه وما سبقها لا يمكن للقارئ أوحتى الناقد أن يأخذها على علتها ويصدقها حتى يعمل فيها البحث والنظر والعودة للمناهج المناسبة للكشف عنها .

5- المنهج النفسي مناسب للنص التراثي:

وبالحديث عن ما يناسب كل نوع أدبي وكل نص، يمكن أن أطرح هذا النص في بحر المنهج النفسي لمناسبته له حيث يقول الجاحظ مواصلا سرد مفاخر السود على الأجناس الأخرى: قالوا: ولو أن الزنجي والزنجية إذا تناكحا بقيت أولادهما بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق، كانوا قد غلبوا على الدار بالعدد والجلد، والعلم والتدبير، ولكن ولد الهندي والهندية، والرومي والرومية، والخراساني والخراسانية، يبقون فيكم وفي بلادكم كبقاء آبائهم وأمهاتهم، ولا يبقي ولد الزنجيين بعد الحيض والاحتلام. على أنا لا نصيب في عشرة آلاف واحدا يبلغ ما ذكرنا، إلا أن يضرب الزنجي في غير الزنجيات، والزنجية في غير الزنج، ولولا أن الزنجي والزنجية قليلا ما يريدان من الغرائب والغرباء، لكنا على حال سنرى لرجال

الزنج نسلا كثيرا، ولكن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي. قالوا: وكذلك البيضان منكم، لا يكادون ينشطون لطلب النسل من الزنجيات. والزنجية أيضا من الزنجي أسرع لقاحا منها من الأبيض. قالوا وأنتم لا تكادون تعدون ممن ولد له من صلبه مائة ولد إلا أن يكون خليفة فيكون ذلك لكثرة الطروقة، ولا تجدون ذلك في سائركم، والزنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه ؛ لكثرته في بلادهم، لأن الزنجية تلد نحوا من خمسين بطنا في نحو من خمسين عاما، في كل بطن اثنين، فيكون ذلك أكثر من تسعين. لأنه يقال إن النساء لا يلدن إذا بلغن الستين إلا ما يحكى عن نساء قريش خاصة ..... قالوا: وإن نظر البيضان إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك السودان في نساء البيضان. على أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد. من ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأغوار. واليمن أشهى النساء الحبشيات وبنات الحبشيات. وأهل الشام أشهى النساء عنده عندهم الروميات وبنات الروميات وكل قوم فإنما يشتهون جلبهم وسبيهم. إلا الشاذ، وليس على الشاذ قياس.قالوا: وأطيب الأفواه نكهة، وأشدها عذوبة، وأكثرها ريقا، أفواه الزنج والكلاب من بين السباع أطيب أفواها منها. " (هارون ع.، ط1 2018، الصفحات 137-138)

كما نقرأ وتقرأ أعزك الله ليس في الأمر صعوبة وهذه خاصية جميلة في نصوص الجاحظ سهلة المنال بسيطة اللغة واضحة المعاني اللغوية أما المعاني الإدراكية والمعارف العلمية فتحتاج كما أسلفنا لناقد نفسي بصير يعزو ما ذكره المؤلف لانطباعات أو أساطير أثرت عليه أو لترسبات نفسية وما إلى ذلك مما يشوب النفس البشرية فتبثه في إبداعاتها الأدبية فيدرس هذا الكلام بالمنهج النفسي خاصة أنه من الصعوبة بمكان أن "يتشكل أدب دون أن يكون هذا الأدب جزءا أو بعضا من نفس صاحبه أومن إحساسه بما حوله على أقل تقدير، وهذا يعني ببساطة أن الانتاج الأدبي هو أولا وقبل كل شيء إنتاج نفس بشرية لها

نوازعها ورغباتها ووعيها ولا وعيها وطرائقها في التفكير والمعالجة " (خضر، صفحة 49).

فالمنهج النفسي هو المنهج الذي يخضع النص الأدبي للبحوث النفسية، ويحاول الانتفاع من النظريات النفسية في تفسير الظواهر الأدبية، والكشف عن عللها وأسبابها ومنابعها الخفية، وما لها من أعماق وأبعاد وآثار ممتدة كما أن هذا المنهج قام أصحابه من الغربيين ومن النقاد العرب المحدثين بدراسة بعض الأنماط أو النماذج النفسية في الأعمال الأدبية والبحث عن القوانين التي تحكم هذه الأعمال في دراسة الأدب وذلك من خلال :

- " دراسة النص الأدبي بوصفه وثيقة تدل على نفسية الكاتب فثمة رموز وإشارات وأفكار وصور تساعد في الكشف عن شخصيته، وتقدم تفسيرا لدوافعها وخصائصها وسلوكها.
- دراسة حياة المؤلف وأثر شخصيته في تحليل النص الأدبي، وذلك ببيان ملامحه النفسية في العمل الأدبي، .....فالعلاقة بين الكاتب والنص علاقة تبادلية، وهي علاقة تأثر وتأثير بين الكاتب والنص، لأن النص وثيقة تدل على نفسية الكاتب، ولأن الكاتب منطلق لتحليل النص تحليلا نفسيا بالانتفاع من معرفتنا للجوانب النفسية للكاتب التي أثرت في النص ." (خضر، صفحة 65)

أوقد نجد ضالتنا باستخدام أدوات النقد الأسطوري الذي يتطلب قراءة دقيقة للنص وهو إلى علم النفس قريب ومفهومه يرتبط بالتراث الإنساني القديم، وما تضمنه من نماذج وأنماط وطقوس وعادات ومعتقدات، وكل الموروثات الثقافية والفكرية والدينية، والمنهج الأسطوري يحاول من خلال النص الكشف عن علاقة الإنسان بالكون، وبذلك يمكن تعريف المنهج الأسطوري بأنه: «النقد القائم على الموروث الشعبي أوالأسطوري أوالشعائري، وهو بذلك يفسر الأعمال الأدبية باعتبارها تجسيدات لأنماط وبني أسطورية، أو لنماذج أصلية، لا زمنية،

تعاود الوقوع، ولا يكون الاهتمام في هذا النقد بالخصائص النوعية للعمل الأدبي بقدر ما يكون بسمات البنية السردية أو الرمزية التي تربطه بأساطير قديمة . ويقوم النقد الأسطوري على استقراء الظواهر الأسطورية داخل النصوص الإبداعية، ثم تتبع مصادر هذه الأساطير الموظفة . ثم يصنفها تصنيفا نوعيا، ثم يحدد طرائق التوظيف الأسطوري في النصوص الإبداعية موضوع الدراسة للوقوف على تجلياتها داخل العمل الأدبي، ومدى احتفاظها بخصا نصه، كشخصية، أوحادثة. أوموتيفا أسطوريا من خلال احتفاظها بالحد الأدنى للخصائص الجوهرية ومدى تحولها داخل العمل الأدبي " (خضر، صفحة 78) .

6- علم الاجتماع والجغرافيا والبشرية :

ومواصلة لتتبعنا لرسالة الجاحظ في الفخر للسودان على البيضان باعتبارها نصا تراثيا شيقا، وحاملا للكثير من الإبداع الأدبي ومن الحقائق العلمية نورد اخر فقرة يتحدث فيه في مجال علم الجغرافيا والسكان :

"قالوا: وأنتم ترون كثرة العدد مجدا، ونحن أكثر الناس عددا وولدا. قالوا: ونحن صنفان: النمل والكلاب

قالوا: ولو عدلتم بالنمل العرب كلها لأربت عليها. فكيف إذا قرنت إليها الكلاب ؟

ثم كيف إذا ضممتم إليها الحبشة والنوبة وفزان ومرو وزغاوة وغير ذلك من أنواع السودان؟ وليست قحطان من عدنان في شيء.

ونحن بالحبشة أشبه، وأرحامنا بهم أمس من عدنا ن بقحطان. وإن ذكرتم اختلاف اللغات؛ فإن لغة عجز هوازن)، وقد تختلف اللغات والأصل واحد، وقد تتفق والنجر مختلف. ومن دخل أوائل خراسان وأواخرها، وأوائل الجبال وفارس وأواخرها، علم أن اللغات قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد .

قالوا: وأنتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط، وإنما رأيتم السبي يجئ من سواحل قنبلة وغياضها وأوديتها، ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا، وليس لأهل قنبلة جمال ولا عقول. وقنبلة : اسم الموضع الذي ترفون منه سفنكم إلى ساحله لأن الزنج ضربان: قنبلة ولنجوية، كما أن العرب ضربان: قحطان وعدنان. وأنتم لم تروا من أهل لنجوية أحدا قط، لا من السواحل ولا من أهل الجوف، ولو رأيتموهم نسيتم الجمال والكمال..

وقالوا: والسودان أكثر من البيضان، لأن أكثر ما يعد البيضان فارس والجبال وخراسان، والروم والصقالبة وفرنجة والأبر، وشيئا بعد ذلك قليلا غير كثير . والسودان يعدون الزنج والحبشة، وفزان وبربر، والقبط والنوبة، وزغاوة ومرو، والسند والهند، والقمار والدبيلا، والصين وما صين. والبحر أكثر من البر،وجزائر البحر ما بين الصين والزنج مملوءة سودانا، كسرنديب، وكله، وأمل، وزابج وجزائرها إلى الهند إلى الصين إلى كابل وتلك السواحل.. " (هارون ع.، ط1 2018، الصفحات 136-137).

وكلام كهذا لا يمكن اثباته ولا نفيه بالجملة إلا باستخدام منهج علمي دقيق في مجال علم السكان والجغرافيا ،فالكاتب هنا يقدم معلومات علمية دقيقة تستلزم التثبت خاصة وأنه يقوم بعملية حجاج وبرهنة على ما يذهب إليه من بداية رسالته إلى نهايتها ولا يمكن لأي دارس بمنهج غير الذي ذكرناه أن يقول صدق الكاتب أو كذب وأساء الحجة حين ساقها دون تثبت ،وهذا ديدن النصوص التراثية حيث نجد فيها الكم الهائل من المعارف والعلوم التي تستدعي من الناقد والباحث الوقوف عندها قبل نقلها والاحتجاج بها .

7. خاتمة

بعد هذا الاستعراض المقتضب لبعض المناهج النقدية السياقية منها خاصة واسقاطها على ما اخترناه من نصوص لا نريد من خلال ذلك انتقادا ولا انتقاصا للجاحظ العالم القدير أو حطا من معارفه وعلومه وليس محاولة لتعريف المناهج النقدية الحديثة فليس هنا مجالها ولا ندعي بها كمال معرفة وإنما أردنا أن نكون قارئا بسيطا أو قارئا واعيا يجلب الأدوات المنهجية النقدية لفك نص تراثي فيجد نفسه أمام كم هائل من الابداع الأدبي والعلمي المعرفي ويتأكد أن منهجا واحدا ولا حتى منهجين اثنين كافيين لتحليل وفهم نص تراثي مثل هذا الذي عرضناه وبالتالي نصل إلى الخلاصة الاتية :

إن الاعتماد على المناهج النقدية منفردة يجعلها في أزمة حقيقة أمام النصوص التراثية التي لها خاصيتها وميزتها التي كانت سائدة في زمانها من حيث الامكانيات اللغوية والبلاغية والمعرفية الممتزجة والمعبر عنها بلغة عربية ثرية وجزلة، فتكتشف للوهلة الأولى أن النص التراثي كالموشور إذا عرضته للضوء ينبثق عنه سبعة ألوان بخصائص مختلفة وموجات طولية متفاوتة، كانت قبل ذلك تبدو ضوء أبيض موحدا، فالضوء بمثابة النص التراثي المركب والموشور هو الأداة النقدية التي تمكننا من تحليل هذا النص وكشف خباياه وكنوزه لكن هذه الأداة لا يمتلكها ولا منهج واحد منفرد من المناهج السياقية ولا النسقية بطبيعتها الاستقلالية والانفرادية التي اكتسبتها عبر عصور تطورها فقد بات من الضروري التفكير بجدية في البحث عن منهج نقدي متكامل يجمع هذه المناهج المتشضية ويربط الجسور والهوات التي تعمقت بين العلوم والمعارف .

ويا حبذا لوكان هذا المنهج عربيا خالصا يحترم خصوصية لغتنا ويقدر جمال لغتنا العربية وبلاغتها وقدرتها المتميزة على أداء المعاني بقدرة لا تضاهيها لغة اخرى .

وإذا كان من الضروري إقحام المناهج والدراسات الغربية فلابد أن تكون موحدة في وسائلها وأدواتها الاجرائية لفك رموز هذه النصوص .

ولا نغفل أنه منذ سنوات قد ظهرت دراسات تسمى البينية تدعم المسعى الذي ندعوا إليه وقد أقيمت الكثير من الملتقيات والتظاهرات مما وقفت عليه في هذا المجال مثل :

المؤتمر الدولي التاسع "الدراسات البينية في العلوم العربية والإسلامية في ضوء التسارع التكنولوجي والمعرفي" بكلية دار العلوم بجامعة المنيا، برعاية الدكتور خالد عبد الغفار وزير التعليم العالي، والدكتور مصطفى عبد النبي رئيس الجامعة، وقد كان يهدف هذا المؤتمر إلى الوقوف على الإطار النظري لمفهوم الدراسات البينية وتأصيله، والكشف على تداخل العلوم والدراسات البينية والتكامل المعرفي فيما بينهما، وإبراز مجال الدراسات البينية وأثرها في الحضارة الإنسانية، وكذلك لرصد أثر التقنيات الحديثة والمعاصرة في خدمة الدراسات العربية والإسلامية. (فهمي، 2019)

ومثل المؤتمر الدولي الموسوم بعنوان :« اللغة العربية والدراسات البينية: الأفاق المعرفية والرهانات المجتمعية» الذي نظمه مركز دراسات اللغة العربية وآدابها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتاريخ 29/28/افريل 2015 (الاسلامية، 2015)

فبمثل هذه الدراسات والمؤتمرات قد نصل إلى ما نصبو إليه من توحيد الرؤى والمناهج والكشف عن الكنوز المخبوءة في نصوصنا التراثية، أو البحث عن دراسات نقدية عربية خالصة تراعي خصوصيات الأدب العربي ،وليس الأمر غريبا أو جديدا على أدباءنا العرب ولا على نقادنا فقد كان لهم السبق في وضع القواعد وتأصيل المناهج .

8. قائمة المراجع:

أحمد أمين. (2012). *النقد الأدبي* . القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

تحقيق وشرح عبد السلام هارون. (ط1 2018). *رسائل الجاحظ.الجزء الأول*. القاهرة: مكتبة ابن سينا.

جامعة محمد بن سعود الاسلامية. (2015). *اللغة العربية والدراسات البينية الافاق المعرفية*. الرياض: جامعة محمد بن سعود الاسلامية.

د.حميد ادم ثوريني. (2004). *منهج النقد الادبي عند العرب*. عمان: دار الصفا للنشر والتوزيع.

عبد السلام هارون. (ط1 2018). *رسائل الجاحظ.الجزء الأول*. القاهرة: مكتبة ابن سينا.

عبد الله خضر حمد. (بلا تاريخ). *مناهج النقد الادبي السياقية والنسقية* . بروت،لبنان: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.

اسلام فهمي. (23 مارس، 2019). *elwatannews*. تم الاسترداد من elwatannews:.https://www.elwatannews.com/news/details/4078976